الحمد لله خلق الخلق، وأحصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا، أحمده سبحانه و أشكره على جزيل نعمائه ، وسابغ عطائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في أُلوهيته وفي ربوبيته وفي أسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله السراج المنير والبشير النذير، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الغر الميامين، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .**أما بَعْدُ** فَأُوصِيكُم أَيُها الناسُ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللهِ عَز وجَل فَهِي وقت العمر، والنجاة من القبر(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)(١).

إخوة الدين: إِنَّ الله سبحانه وتعالى جعل الآجال محدودة ، والأنفاس معدوة، والأعمار تنقضي، وكلَ موسمٍ يَنتهي، وكلَ شيءٍ يزول ويحول، فالعمرَ ينتهي، ورمضانَ يرحل ويتحول، والحجَ سريعٌ انقضاؤه، إلا الله فهو حيُ دائمُ لا يموت ولقد خلق الخلق؛ لعبادته(وما خلقت الجن والإس إلا ليعبدون)(٢)، وجعل أعمارهم زمانا لتوحيده وطاعته، فلا حدللعبادة إلا الموت وانقضاء الأجل قال عز وجل :(واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)(٣) ، وعن سالم بن عبد الله قال عن قوله تعالى(واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) (٤)،قال: الموت (١) . وعن مجاهد وقتادة ومعمر، مثله.

---

(١) سورة آل عمران، آية102.

(٢) سورة الذاريات، آية:56.

(٣) سورة الحجر، آية:99.

(٤) سورة الحجر، آية:99.

قال القرطبي رحمه الله: والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية، وكانت من المبايعات، وفيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أما عثمان- أعني عثمان بن مظعون- فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعلُ به" (١) . انفرد بإخراجه البخاري رحمه الله! وكان عمر بن عبد العزيز يقول: ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له، يعني كأنهم فيه شاكون(٣)، وبَوبَ البخاري في صحيحه باب في الأمل وطوله وقول الله تعالى: {فمن زحزح عن النار، وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} [آل عمران: 185] وقوله: {ذرهم يأكلوا ويتمتعوا، ويلههم الأمل فسوف يعلمون} [الحجر: 3] وقال علي بن أبي طالب: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل» {بمزحزحه} [البقرة: 96] : «بمباعده» (٤)

أيها المتقون: إن الأعمار مقدرةٌ معدودةٌ، وكلَ نفس لها عمرٌ محدودٌ لا يزيد ولا ينقص، والسرين تأخذ من الإنسان عمره، وتُنهي أجلَه ، فعن عبد الله رضي الله عنه، قال: خط النبي صلى الله عليه وسلم خطا مربعا، وخط خطا في الوسط

---

(١)تفسير الطبري (17 / 160) ، أخرجه البخاري باب قوله:{واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} [الحجر: 99] صحيح البخاري (6 / 82).

(٢) أخرج البخاري باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه حديث رقم124 صحيح البخاري (2 / 71).

(٣)تفسير القرطبي (10 / 64)

(٤)أخرجه البخاي باب في الأمل وطوله صحيح البخاري (8 / 89).

خارجا منه، وخط خططا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: " هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به – أو: قد أحاط به – وهذا الذي هو خارج أمله، وهذا الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا" (١)، و عن أنس، قال: خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا، فقال: «هذا الأمل وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب» (٢)، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكثروا ذكر هادم اللذات» ، يعني الموت(٣)، و عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله، حتى بلغه ستين سنة» (٤).

أيها المؤمنون: الواجبُ علينا أن نعمل ونجد ونجتهد فلا تنقضي أعمارنا ولحظاتنا إلا بعمل وطاعة تقربنا من الله. سئل الجنيد عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة فقال: المكاتبُ عبدٌ ما بقي عليه دِرَهمٌ(٥). قال الحسن: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلا دون الموت ثم قرأ:{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر:99] هذه الشهور والأعوام والليالي والأيام كلها مقادير الآجال

---

(١)أخرجه البخاي باب في الأمل وطوله حديث رقم6417 صحيح البخاري (8 / 89).

(٢)أخرجه البخاي باب في الأمل وطوله حديث رقم أخرجه البخاي باب في الأمل وطوله حديث رقم صحيح البخاري (8 / 89)

(٣)أخرجه ابن ماجه باب ذكر الموت والاستعداد له حديث رقم4258 سنن ابن ماجه (2 / 1422)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري باب من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر حديث رقم6419 صحيح البخاري (8 / 89)

(٥)الرسالة القشيرية (2 / 372) .

ومواقيت الأعمال ثم تنقضي سريعا وتمضي جميعا والذي أوجدها وابتدعها وخصها بالفضائل وأودعها باق لا يزول، ودائم لا يحول هو في جميع الأوقات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد، وكل وقت يخيله العبد من طاعة مولاه فقد خسره، وكل ساعة يغفل فيها عن ذكر الله تكون عليه يوم القيامة ترة فوا أسفاه على زمان ضاع في غير طاعته، وواحسرتاه على قلب بات في غير خدمته(١) .

إخواني: من عمل طاعة من الطاعات وفرغ منها فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى، وعلامة ردها أن يعقب تلك الطاعة بمعصية ما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها! وأحسن منها بعد الحسنة تتلوها! وما أقبح السيئة بعد الحسنة تمحقها وتعفوها !ذنب واحد بعد التوبة أقبح من سبعين ذنبا قبلها النكسة أصعب من الضعفة وربما أهلكت، سلوا الله الثبات على الطاعات إلى الممات، وتعوذوا به من تقلب لقلوب، ومن الحور بعد الكور، وما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة! وأوحش منه فقر الطمع بعد غنى القناعة! ارحموا عزيز قوم بالمعاصي ذل وغني قوم بالذنوب افتقر(٢).

أيها الإخوة: يا من طلع فجر شيبه بعد بلوغ الأربعين يا من مضى عليه بعد ذلك ليالي عشر سنين حتى بلغ الخمسين يا من هو في معترك المنايا ما بين الستين والسبعين ما تنتظر بعد هذا الخبر إلا أن يأتيك اليقين يا من ذنوبه بعدد الشفع

---

(١)لطائف المعارف لابن رجب (ص:223) .

(٢)لطائف المعارف لابن رجب (ص:224)

والوتر أما تستحي من الكرام الكاتبين؟ أم أنت ممن يُكذب بيوم الدين؟ يا من ظلمة قلبه كالليل إذا يسري أما آن لقلبك أن يستنير أو يلين[1] .

في بعض الكتب السالفة: إن لله مناديا ينادي كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده أبناء الستين هلموا إلى الحساب أبناء السبعين ماذا قدمتم وماذا أخرتم أبناء الثمانين لا عذر لكم. ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا وتجالسوا بيهم فتذاكروا ما عملوا ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم.

وقال وهب: إن لله مناديا ينادي في السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين زرع دنا حصاده. أبناء الخمسين ماذا قدمتم وما أخرتم أبناء الستين لا عذر لكم.

قال مسروق: إذا أتتك الأربعون فخذ حذرك وقال النخعي: كان يقال لصاحب الأربعين احتفظ بنفسك، وكان كثير من السلف إذا بلغ الأربعين تفرغ للعبادة وقال عمر بن عبد العزيز: تمت حجة الله على ابن الأربعين

يا أبناء العشرين كم مات من أقرانكم وتخلفتم يا أبناء الثلاثين أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم يا أبناء الأربعين ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم. يا أبناء الخمسين تنصفتم المائة وما أنصفتم يا أبناء الستين أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم أتلهون وتلعبون لقد أسرفتم؟.

قال الفضيل لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تصل.

يا من يفرح بكثرة مرور السنين عليه إنما تفرح بنقص عمرك قال أبو الدرداء والحسن رضي الله عنهما: إنما أنت أيام كلما مضى منك يوم مضى بعضك.

([1])لطائف المعارف لابن رجب (ص:274)

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى يدني من الأجل

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدا ... فإنما الربح والخسران في العمل

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟ كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله وحياته إلى موته؟.

يا من كلما طال عمره زاد ذنبه يا من كلما ابيض شعره بمرور الأيام اسود بالآثام قلبه.

يا من تمر عليه سنة بعد سنة وهو مستثقل في نوم الغفلة والسنة يا من يأتي عليه عام بعد عام وقد غرق في بحر الخطايا فعام يا من يشاهد الآيات والعبر كلما توالت عليه الأعوام والهور، ويسمع الآيات والسور، ولا ينتفع بما يسمع ولا بما يرى من عظائم الأمور ما الحيلة فيمن سبق عليه الشقاء في الكتاب المسطور؟:

{فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]ـ

{وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: 40] (١) .

وكتبه/ د. سعد بن عبدالله السبر

الجمعة 26/ 12/ 1436.

(١)لطائف المعارف لابن رجب (ص:303-304)